

## (سورة الكافرون)\*

### قراءة بلاغية

أسماء سعود الخطاب

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق.

(تاريخ القبول بالنشر: 15 آب 2013)

#### الملخص:

ونحن إذ نحلل السورة على وفق قراءة بلاغية خاصة فإننا ننظر إلى الظواهر البلاغية في نسيج السورة بوصفها لوحة فنية متكاملة، تتداخل فيها الأساليب البلاغية في بنية السورة، وهي تعمل على إثارة النفس والمخيلة، وتحريك العقل وبعث النشاط في الحواس، بحيوية وقوة تأثير، فيجود علينا النص القرآني المعجز بما عُجز عن الإتيان بمثله لما يتضمنه من إعجاز في النظم والمعاني ومن ثم بالتصوير الدقيق الذي تأتي به السورة في كل آية منها والأساليب البلاغية في أي نص أدبي، ولاسيما النص القرآني المعجز ما هي إلا دلائل استكشاف لمناحي الفن والجمال الكامن في بنيته، فكانت عنايتنا في هذه الدراسة بالناحيتين البلاغية والصوتية واضحة. ففيما يتصل بجانب المعنى حاولنا أن نبين الترابط المعنوي بين آيات السورة في ضوء أساليبها البلاغية، ومن أهم مظاهر ذلك الترابط هو الوصول إلى النتيجة الحتمية التي يدور حولها النص بضرورة حسم الموقف (الآن) بين الرسول والكفار فيما يطلبون، وقطع رجائهم من أن يقاربهم الرسول (ﷺ) في أن يعدل بربه أحداً في زمن من الأزمان.

#### مدخل:

الحال والاستقبال وأن دين الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك<sup>(١)</sup>. ونحن إذ نحلل السورة على وفق رؤية بلاغية خاصة فإننا ننظر إلى الظواهر البلاغية في نسيج السورة بوصفها لوحة فنية متكاملة، تتداخل فيها الأساليب البلاغية في بنية السورة، وهي تعمل على إثارة النفس والمخيلة، وتحريك العقل وبعث النشاط في الحواس، بحيوية وقوة تأثير، فيجود علينا النص القرآني المعجز بما عُجز عن الإتيان بمثله لما يتضمنه من إعجاز في النظم والمعاني ومن ثم بالتصوير الدقيق الذي تأتي به السورة في كل آية منها والأساليب البلاغية في أي نص أدبي، ولاسيما النص القرآني المعجز ما هي إلا «دلائل استكشاف لمناحي الفن والجمال الكامن في بنيته»<sup>(٢)</sup>، فكانت عنايتنا في هذه الدراسة بالناحيتين البلاغية والصوتية واضحة. ففيما يتصل بجانب المعنى حاولنا أن نبين الترابط المعنوي بين آيات السورة في ضوء أساليبها البلاغية، ومن أهم مظاهر ذلك الترابط هو الوصول إلى النتيجة الحتمية التي يدور حولها النص بضرورة حسم الموقف (الآن) بين الرسول والكفار فيما يطلبون، وقطع رجائهم من أن يقاربهم الرسول (ﷺ) في أن

يتناول البحث (سورة الكافرون) وهي سورة مكية باتفاق وعدد آياتها ست، وروي في سبب نزولها فيما رواه الواحدي: أن رسول الله (ﷺ) كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأممية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي مكانة في قومهم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد سنة، وتعبد ما نتعبد سنة فنشرك نحن وأنت في الأمر فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد قد أخذنا بحظنا منه وإن كان ما تعبد خيراً مما نعبد كنت قد أخذت بحظك فيه فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره فأنزل الله فيهم: ((قل يا أيها الكافرون))، فغدا رسول الله (ﷺ) إلى المسجد الحرام وفيه المأ من قريش فقرأها عليهم فيسوا فيه عند ذلك<sup>(٣)</sup>.

وقد عمدنا في هذا المدخل ذكر سبب النزول لما له أهمية كبرى في إضاءة الظواهر الأسلوبية والبلاغية التي شكلت نسيج السورة الكريمة فيعلم من خلال ذلك الغرض الذي اشتملت عليه وهو «تأسيس قريش في أن يوافقهم الرسول (ﷺ) في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في

٤- تقديم المسند على المسند إليه في (لكم دينكم ولي ديني)

(ب) علم البيان :

ورد في السورة منه :

١- الاستعارة التمثيلية في (لكم دينكم ولي ديني) .

(ج) علم البديع :

ورد في السورة منه :

١- حسن الابتداء في (قل يا أيها الكافرون)

٢- الطباق

٣- التقابل

٤- جناس الاشتقاق

٥- الفاصلة والإيقاع

٦- حسن الانتهاء (لكم دينكم ولي ديني)

وقد تواشجت هذه الأساليب البلاغية جميعاً في نسيج السورة على نحو متناغم في توصيل مقاصد السورة وأهدافها إلى المتلقي بطريقة موحية مؤثرة.

القسم الأول :

إذا كان للعنوان أثر في الإفضاء ببعض ما يوحى به النص فإنّ عنوان السورة (الكافرون) يندرج ضمن هذه المقولة النقدية؛ وذلك من خلال البث الدلالي الذي يوحى به العنوان، فقد جاءت لفظة الكفر بصيغة اسم الفاعل مجموعاً جمع مذكر سالماً ولم يجمع جمع تكسير (كفار) و(كفرة)؛ لأنّ جمع مذكر السالم. يدلّ على إرادة الحدث ويقرب اللفظ من الفعلية وهذا يتناسب مع فعل الكفار الذين كانوا يسامون الرسول على دينه بين الحين والآخر، فهو «إشارة إلى استمرار حدودهم وكفرهم به»<sup>(١)</sup>؛ لذا عبّر عن العنوان بالوصف بجمع المذكر السالم (الكافرون) دون الوصف بجمع التكسير ليفضي ذلك العنوان إلى مضمون السورة.

وكما هو معروف فإنّ التناسق يعطي عبارة القرآن جاذبيتها واستحواذها على النفس وان دقتها تبعث العقل على ممارسة في التدقيق ونحن قد نلمس هذا التناسق في إيقاعه؛ لأنّ الإيقاع يوحى بجو السورة والمعنى العام لها. ويصح أن نقول خلاف ذلك أيضاً وهو أن محتوى السورة وجوها يوحى

يعدل بره أحداً في زمن من الأزمان. وفيما يتصل بالجانب الصوتي حاولنا تبيين الوفاق الكامل في السورة بين المعنى والمبنى منطلقين من المقولة القائلة بـ«أن الإيقاع الذي يكمن في داخل آي القرآن وخارجها يتم في وحدة متناسقة عجيبة وأن التفرع في هذا الإيقاع لا يخرج عن كونه صورة حية لهذا التناسق»<sup>(٢)</sup> فيطالعنا أنواع من الإيقاع في هذه السورة :

. الإيقاع بالتكرار

. الإيقاع بأسلوب العرض

. الإيقاع بالجرس والحركة

. التلون والتنوع بالإيقاع

فضلاً عن إيقاع الفكرة، لتصب جميعاً في معين واحد هو التناسق في النظم البلاغي المعجز انطلاقاً من اللفظة القرآنية وما تستوعبه من معنى وإيحاء وتجاويز مع سائر الألفاظ داخل العبارة، لتجمع مكونة معنى عاماً قائماً على أساس من المنطق يسائر العقل والوجدان والنفس حيث تتداعى المعاني بتسلسل منطقي ويحصل هذا التداعي عن التروي في تحليل النص وتأمله<sup>(٣)</sup>.

وسنعمد قبل تحليل السورة إلى إيراد نصها الكريم أولاً، وتحديد الأساليب البلاغية فيه ثانياً، ثم توزيعها على علومها الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع) التي تشكل لحمه البلاغة وسداها.

النص :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

( أ ) علم المعاني :

ورد السورة منه :

١- الأسلوب الإنشائي : الأمر ( قل ) + ( النداء ) : ( يا أيها الكافرون )

٢- الفصل والوصل.

٣- الاعتراض في ( ولا أنا عابد ما عبدتم ).

اي في الحالتين الثابتة والمتحددة في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال<sup>(١٠)</sup>.

ثم ينتقل السياق إلى الشرط الثاني وهو مختص بقريش فبعد أن نفى (ﷺ) عبادته لأهتهم في المستقبل الذي يفيد بدوره نفي عبادتها في الحال بدلالة فحوى الخطاب ، جاء في مثاله نفي عبادتهم لله بنفي اسم الفاعل الذي هو حقيقة في الحال (ولا انتم عابدون) وفي هذا إخبار من الرسول (ﷺ) بأنه يعلم أن الكفار غير عابدين ما يعبد بإنشاء من الله . سبحانه . فجاء قوله هذا من دلائل نبوءته . وقد وصل بين الآيتين (٣) و (٤) لمناسبة بينهما هي نفي أن يعبد الكفار الله . - سبحانه - . فأردف بنفي أن يعبد الرسول (ﷺ) أهتهم محققاً بذلك تناظرا بين عدم عبادة احد الطرفين لإله الآخر ، وجملة (ولا انا عابد ما عبدتم) معترضة بين التأكيد (ولا انتم عابدون ما اعبد) الأولى والمؤكد (ولا انتم عابدون ما اعبد) الثانية قصد منها تخصيص وتوكيد الكلام الذي يكتنفها . ودليل على صدق نبوءته (ﷺ) أخبر إخبارا ثانياً تنبيهاً على أن الله . سبحانه . أعلمه بأن الكافرين لا يعبدون الله بقوله (ولا انتم عابدون ما اعبد) فوصل بين الجملتين (ولا انتم عابدون ما اعبد) و(ولا انا عابد ما عبدتم) لبيان تمام الاختلاف بين حالة الرسول (ﷺ) وحالهم فجاءت الجملة مؤكدة لنظيرتها السابقة توكيداً للمعنى الأصلي منها وليس موقعها موقع توكيد<sup>(١١)</sup>، محققة بذلك قطعاً لأطماع الكفار على أتم وجه وأكده عن أن يجيبهم رسول الله (ﷺ) إلى ما سألوه من عبادة آهتهم .

وعلى مدى السورة تطالعنا ثنائيات الفصل والوصل في آن واحد، فالفصل المتحقق بين الآية الأولى والثانية ، والآية الخامسة والسادسة وهو فصل مثل استجابة علمية للتناقض الموجود بين الطرفين ، ففصل بين الآيتين تنزيهاً للرسول محمد (ﷺ) مما اتصف به الكافرون من وصف ثابت ، وعند الآية الخامسة (ولا انتم عابدون ما اعبد) نلاحظ تأكيداً على عدم عبادة الكفار لإله محمد (ﷺ) ففصل بينها وبين النتيجة الحتمية لوجود بون شاسع بين الكفار والرسول ، فهم لهم شركهم وهو له توحيدهم أمّا الوصل فمتحقق بين الآيات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة لما وقع بينها من مناسبة في المعنى.

بتنوع الإيقاع أيضاً وإذا ما أجرينا موازنة بين آي الصدارة وداخل السورة وخواتمها ، نجد إيقاعاً متوازياً متناسقاً يساير نوع إيقاع جو السورة.

وبما أن السورة تتخصص على فكرة أساسية هي المفاصلة بين الرسول (ﷺ) والكافرين وصولاً إلى البراءة المطلقة ، فهي بتدئى بإيقاع شديد تشوبه نعمة الإقرار المتأتية من صيغة فعل الأمر (قل) للاهتمام بما بعد القول بأنه «كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه»<sup>(٧)</sup> ، فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحى بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده ليس لمحمد (ﷺ) فيه شيء إنما هو الله الأمر الذي لا مرد لأمره. فضلاً عن النداء بأداة البعد المؤكدة بتكرار (يا + الهاء) معبراً بالوصف (الكافرون) المؤذن بالرسوخ أي الذي قد حكم بشاقتهم على الكفر<sup>(٨)</sup> ، فأوحى المطلع وافتتاح الخطاب بحقيقة الانفصال الذي لا يرحى معه اتصال ، فتحولت براءة الرسول (ﷺ) من عبادة الكافرين إلى بؤرة تندفق منها الآيات على شكل ثنائيات زمنية بين الحال الاستقبال ، وثنائيات متطابقة\* يتدئى الرسول ، محدثاً ذلك لعله تجاوبا بين المنطوق والمدلول.

يتدئى الرسول (ﷺ) بأولى شروط هذه المفاصلة من جهته بإعلان براءته من الشرك : (لا أعبد ما تعبدون) معبراً (ﷺ) عن هذه البراءة ابتداء بأداة النفي (لا) الداخلة على الفعل المضارع (اعبد) فجمع بهذا النفي ونفي عبادته للأصنام في زمن الحال والاستقبال فعند النطق ب:(لا اعبد) لا يكاد يتحقق هذا الفعل حتى بمعنى زمن فيصير مستقبلاً فجاء التعبير ب:(لا) دون (ما) إشارة بأنه . سبحانه . تعالى يثبتته على الصراط المستقيم ولا يظفرهم به<sup>(٩)</sup> . وقد أحدث هذا النفي مع ما أردفه من عبارة (ما تعبدون) مباينة دلالية قامت على التضاد بين عدم عبادته (ﷺ) للأصنام وبين عبادة الكافرين لها محققاً معادلة طباقية تجمع بين النفي والإثبات ، ومخرجاً الرسول بنفيه حدث عبادته للأصنام من دائرة الكينونة ، فقد جاء نفيه بالصيغتين الفعلية والاسمية (لا اعبد ما تعبدون) و(لا انا عابد ما عبدتم) . وبالفعلين المضارع والماضي (تعبدون) و(عبدتم)

إشباع العقل وإرضاء النفس ونود في هذا القسم أن نقصر الحديث عن ظاهرة التلاؤم الصوتي التي تجلت في العلم الثالث من علوم البلاغة . علم البديع . الذي جاءت أنواعه في السورة ليس لمجرد الزينة وإنما دعاها المعنى ويشكل بها النظم القرآني ، وأدت دورها المعنوي فضلاً عن دورها الإيقاعي والجمالي في مكانها في النص . ومن خلال تواشج العلوم الثلاثة ظهر النص كبنية واحدة كل عنصر بشكل بلاغي فيه مثل بنية أو خلية تتشابك وتتعاقد مع بقية البنى في تكوين الكيان العضوي للنص .

ولعلنا لا نخطئ إن رددنا . مع من يقول . سحر القرآن في نسقه الذي يجمع مزايا الشعر والنثر جميعاً «فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفصيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة واخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقي الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل والتقفية التي تغني عن القوافي»<sup>(١٢)</sup>، وان هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث في القرآن حتى في اللفظة المفردة في كل آية من آياته فتكاد تستقل بجرسها ونغمها وظلالها بتصوير مشاهد تحاطب الحس والوجدان وتصل إلى النفس من منافذ شتى بالتخييل والإيقاع .

فالتدفق الإيقاعي في السورة يبتدئ بإيقاع شديد تشوبه نغمة التوبيخ والتحقيق الموجهة إلى قريش وأول هذا التدفق يعتمد على التردد الجناسي الاشتقائي المغاير والمماثل\* الذي كان أساس جذره اللغوي (ع . ب . د) (اعبد ، تعبدون ، عابد، عبدتم) فهذه الألفاظ وان دلت على العبادة . التي هي غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال وهو الله تعالى<sup>(١٣)</sup> ، فضلاً عن كونها الأصل الأصيل في العقائد لا يتغير فيها الرأي ؛ لأنّ تشريعات العبادة لله ، ووحدانية الله وعدم شريك له أمر متفق عليه من لدن كلّ الرسل . إلا إن بينها قدر من التخالف الدلالي بين الاسم والفعل فضلاً عن التخالف الزمني بين الصيغ وتواشجها السياقي مع بقية النظم الجملي .

فهذه الصيغ تتأرجح ما بين اسم الفاعل والفعل المضارع المبدوء بمحزة (أنيت) وهو يغطي مساحة الحاضر والمستقبل ، إذ إنّ العربية ليس لديها أفعال أو صيغ متخصصة بالمستقبل

وفي خضم المقارنة نتلمس البعد الاستعاري في حسن الختام بين الطرفين اللذين يتعانقان في تقرير حقيقة الدين الحق ودين التوحيد بقوله (لكم دينكم ولي دين) حيث وضع الرسول (ﷺ) نهاية هذه المناظرة بإعلانه المتاركة بين الطرفين . ومن خلال تقلب المسند على المسند إليه ودلالة (اللام) لشبهه الملك في الموضوعين (لكم ولي) ودلالة (الميم) التي ترمز إلى التملك والتملك يجمع البعيد ويكثر القليل<sup>(١٤)</sup> ، كل ذلك حقق الاختصاص في دين كل طرف وذلك بأن الكافرين لهم دينهم الذي هو الإشراف مقصور على الحصول لهم لا يتجاوزهم إلى الحصول للرسول (ﷺ) كما يطمحون ، ودين التوحيد هو دين محمد مقصور عليه لا يتجاوزهم إلى الحصول لهم<sup>(١٥)</sup> .

وقد جرت عادة العرب بان يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، فهي ممّا يجري مجرى المثل\* . والتعبير بالمثلية يشخص رمزاً واضحاً، ومثلاً في التعبير عن مواقف نلمح فيها المشابهة فيكون التعبير ذا دلالة عامة لكل أمر قضي فيه على الوجه الذي لا رجعة فيه ، أي إذا كان المعنى في الأصل بين الرسول والكافرين فهنا يكون مدلوله عاماً لكل حكم ليصدر على الوجه القاطع في صفة الحكم . فختتمت السورة بخاتمة غاية في الحسن ونهاية الكمال فهي من بين الخواتم التي لا يبقى في النفوس بعدها تطلع ولا توق إلى ما يقال<sup>(١٦)</sup> .

وإذا ما عدنا إلى مطلع السورة (قل يا ايها الكافرون) وجدنا أنّه يؤذن بخاتمها (لكم دينكم ولي دين) وما بين هذا وذلك تتحدد شروط المتاركة بين الطرفين وممّا لا شك فيه أن آخر السورة الذي هو اختصاص كلّ بدينه هو أولها الذي أفاد أنّ الرسول لا يعبد معبود الكافرين ولاهم يعبدون معبوده فصار آخرها أولها ومفصلها موصلها . فحاصلها قطع رجاء أهل الكفر من أن يقارعهم النبي (ﷺ) في أن يعدل بره أحداً في زمن من الأزمان<sup>(١٧)</sup> .

### القسم الثاني :

فيما سبق اتجهت نظرنا فيه غالباً إلى المعنى من زاوية التعاون الكامل في القرآن الكريم بين المعاني والمباني ، بين

أما التقابل بين النفي / الإثبات فيمكن توضيحه بالشكل التالي :

<u>الكافرون</u>	<u>الرسول</u>
لا اعبد / نفي عبادة أصنام	ما تعبدون / إثبات عبادة الأصنام لهم
ما اعبد / إثبات	ولا انتم عابدون / نفي
ولا أنا عابد / نفي	ما عبدتم / إثبات

فالنفي هنا أوقع من الإثبات ، فعندما نفي الكفر عن الرسول أثبت له عبادة الله - سبحانه - فالكفر لفظة بمعنى ستر<sup>(١١)</sup>، اي الكفر شيء طارئ على الفكر الإنساني الذي خلق بطبيعته مؤمن ، فوجود الإيمان بالله بالفطرة وبالبرهان وبالل دليل لكن طرأت الغفلة على الناس مرة ، ومرة تقليد البيئات ... الخ فغيروا منهج الفطرة هذا قال تعالى : (( أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك أبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم )) [سورة الأعراف] ، إذن فعندما نفي الكفر عن الرسول أثبت له ضمناً فطرية الإيمان فحاء النفي بمنزلة توكيد للإثبات.

ثم تضافر مع «مجموعة البنى الجناسية والتقابلية مجموعة أصوات مهيمنة على جو السورة بعامتها منها صوت (العين) الذي يعد من أن أنصع الحروف جرساً وألدها سماعاً»<sup>(١٢)</sup> في الألفاظ (اعبد ، تعبدون ، عابد ، عبدتم ، عابدون) الذي جاء بشكل متتابع مشكلاً تجمعاً صوتياً يوحى بالنعنة التي تفيد الاستمرار والترتيب والانتقال من درجة إلى درجة<sup>(١٣)</sup>، وهذا بدوره ينسجم مع إصرار الرسول (ﷺ) على دينه الذي يعد أقوى من إصرار قريش على دينهم ، وحالة أكمل من حالهم والنفي عنده أديم وأبقى من النفي عندهم . فضلاً عن أصوات المد الطويلة المفتوحة ( لا ، ما ، يا ، كافرون ، لا ، ما ، عابدون ) التي كان لها حضور كامل في الآية حيث عملت على تشكيل أصوات متجانسة تؤلف المحور الأساسي والعام للإيقاع الداخلي بما تحمله من وضوح سمعي نتج عنه القدرة على استيعاب مشاعر الغيرة والغضب والمرارة تجاه قريش.

فحسب إثم المستقبل فيدرج من ضمن صيغ الحال ، و المضارع والذي يحدد كينونته انتمائه هو السياق<sup>(١٤)</sup> ، وبنية هذه السورة تقوم على : العبادة والزمن من خلال خطاب ثنائي بين الرسول (ﷺ) والكافرين :

<u>الكافرون</u>	<u>الرسول</u>
ولا انتم عابدون ما اعبد	لا اعبد ما تعبدون
(الحال)	(الحال)
ولا انتم عابدون ما اعبد	ولا أنا عابد ما عبدتم
(المستقبل)	(المستقبل)

فلاحظ التزام الصيغة التي تخص الكافرين شكلاً واحداً و وهذا يقر مقولة الجزم بثباتهم على حالة واحدة ولا سيما أن عنوان السورة ( الكافرون ) يدعو إلى ذلك<sup>(١٥)</sup>.

ومن خلال الخطاب الثنائي هذا برز التقابل بين الغياب / الحضور والنفي / الإثبات فكما هو معروف «أن ظروف البشر متغيرة و تغيير ظروفهم لا يملكون فيها شيئاً ، أمور تجري عليهم و وتفكيرهم نقص لأنهم لا يعلمون ما يستقبل من الأحداث»<sup>(١٦)</sup> لكن المسألة ما بين الرسول والكفار تختلف فهي مسألة ليس فيها ذاتية من البشرية المحصنة ، إنما هي ذاتية محمد المحدودة من الله ، محمد (ﷺ) يعبد الله بذاتيته بمنهج من الله فحدث هنا (غياب للذاتية) فالحق . سبحانه . هو الذي يسن القوانين ومحمد (ﷺ) مبلغ لها ، أما الكافرون فيعبدون الأصنام من ذاتية أنفسهم وكلامهم باطل يستطيعون تغييره فهم أحرار فيها فحدث هنا (حضور للذاتية) ، فإذا ما كانت المسألة قائمة على (حضور وغياب الذاتية) فتفاوض الكافرون مع الرسول تفاوض أحمق وعقيم لأنهم يتفاوضون في أمر مبتوت فيه لان محمد (ﷺ) لم ولن يعبد آلهتهم لا في السابق ولا في الحال أو المستقبل ، فالظرف في مسألة العقائد لا يتغير لأنه منهج من الله موحد دائماً ، وموقف الرسول من عبادة الكافرين هو موقف دائم.

شحن المتلقي ضد واقع دأبت السورة من بدايتها حتى النهاية على التنديد به لفساده ، ومع هذا التصاعد النغمي الذي عمل على استجلاء وتعميق صورة الصراع القائمة بين الرسول والكافرين على مدى السورة الكريمة، يصل الإيقاع إلى ذروته في آية الختام (لكم دينكم ولي دين) ، فالإيقاع الذي يحدثه (لكم و دينكم) بجرسه يخلق الشفتين ، يوحي بصد الرسول الكريم عن الكافرين ، كما تفتح بالاحتقار والمهانة واللامبالاة، فضلا عن نغمتها المشوبة بالزجرمة ، فتعكس هذه النغمة على النفس فتزهزها هزاً.

وبالنظر إلى فواصل\* السورة يلحظ التنوع غير المتباعد في الفواصل (الكافرون ، تعبدون ، اعبد ، عبدتم ، اعبد ، دين) حيث الروي المتماثل في ثلاث فواصل بحرف الروي (النون)، وفاصلتين بحرف الروي (الدال) ، وفاصلة منفردة بحرف الروي (الميم) و وقد جاءت الفاصلة المنفردة مركز ثقل بارز فلما كان ما نفي عن النبي (ﷺ) لا يدخل فيه الماضي.

وإذا ما نظرنا إلى السورة على أنها مقسمة على ثلاثة أقسام يوضحها المخطط الآتي فإننا نلاحظ تناسق معنى هذه التقسيمات مع الفاصلة مع المقطع الصوتي وروي الفاصلة<sup>(٢٤)</sup>.

كما تلمس من الإيقاع ضربات نفسية حادة تدركها نفس المخاطب وتشاركها في ذلك حاسة السمع بأسلوب النفي (لا اعبد، ولا انتم ، ولا أنا ، ولا انتم) اذ مثل النفي صفعات نفسية موجهة للكفار مجسدة لهم حقيقة ما هم عليه من جمود في التفكير وعدم القدرة على النظر في عقيدة التوحيد التي كان يدعوهم إليها الرسول (ﷺ) بفكر متحرر من قيود العادات والتقاليد والأفكار القديمة التي ورثوها عن آبائهم . من خلال إصراره (ﷺ) على موقفه ورفضه ما يدعوونه إليه . المتبلور في أسلوب النفي .

وإذا ما تأملنا عملية الالتفات من صيغة المخاطب (الكافرون) إلى المتكلم (الرسول) وانسجامها مع الانتقالات الزمنية بين الصيغ و فالرسول أعلن براءته من معبوداتهم بالصيغتين الفعلية والاسمية : الصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والصيغة الاسمية الدالة على الثبات لتعلن براءته فيها على كل حالة ثم انه استغرق الزمن الماضي والحال والاستقبال باستعماله الفعل الماضي والمضارع (تعبدون ، عبدتم) في حين نفاه عنهم بالصيغة الاسمية فقط ، إذن هناك تناسب حركي عمل على توليد إيقاعات موسيقية أوحى بجو مشحون بالسخرية والتحقير لقريش و باختلاف الصيغ المصاغة بكتل من الحروف المتماثلة على اختلاف ترتيبها أدت دورها في

المعنى	الصوت	المقطع الصوتي	الآية
إعلام الكافرين أنه(ص) لا يعبد ما يعبدون.	ون ون	ص ح ص ص ح ص	قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون
التوكيد على ما سبق يدخل اليأس إلى قلوب الكفار وظهور محاولة المفاصلة في العبادة من خلال تناوب الأصوات في روي الفاصلة.	د م د	ص ح ص ص ح ص ص ح ص	ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد
مجيء الفاصلة المنفردة يظهر النهاية الحاسمة أو الخاتمة غير المتوقعة.	ن	ص ح ص	لكم دينكم ولي دين

(١٢) ينظر : التفسير الكبير ، ابن تيمية : ٢٣٦/٦ .

(١٣) ينظر : فتح البيان ، البخاري : ٤٢٣/١٥ .

\* الألفاظ الخارجة بحرى الأمثال : موضوع قائم بذاته وله صيغته وتراكيبه المتعددة في القرآن ويعتمد استنباطه على الذائقة البلاغية والحدس الفني ، وموضوع المثل القرآني غيره وليس لأحد إضافة ما ليس منه إليه ، وإنما هو محدود بما ضربه الله وحده . ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني ، د.محمد حسن علي الصغير / ١١٠ .

أما المثل القرآني : لا حالة سابقة يقاس عليها ولا نظائر يشار إليها وإنما أنزلت لأول مرة على صيغة مثل يتمثل به إبداعا وابتكارا وإعجازا ثبتت له السبورة أو لم تثبت ، تداولها الناس وهي . بعد . توقيف من الله لا يزداد عليها . ينظر :

الامثال في القرآن الكريم ، د.محمد جابر الفيض / ٢٦٢ . ٢٦٤ .

(١٤) ينظر : تحرير التحرير ، المصري / ٦٢٠ .

(١٥) ينظر : نظم الدرر : ٣٠٩/٢٢ .

(١٦) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب / ٨٧ .

\* جناس الاشتقاق : وهو ما توافق ركناه في الحروف الاصول مع الترتيب

والاتفاق في اصل المعنى مع الاختلاف في الحركات والسكنات ، والمراد به

الاشتقاق الاصغر . ينظر : جنان الجناس ، الصفدي / ٣٣ ، ومواهب الفتاح ،

المغربي (شرح التلخيص) : ٤٣٠/٤ .

(١٧) المفردات ، الاصفهاني / ٤٧٩/٢ .

(١٨) التوازي في القرآن الكريم ، وداد مكاوي ، اطروحة دكتوراه / ٥٧ .

(١٩) ينظر : م.ن / ٥٨ .

(٢٠) المنتخب من تفسير القرآن الكريم ، محمد متولي الشعراوي / ١٤٧/٣ .

(٢١) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (كفر) : ٢٧٣/٣ .

(٢٢) لسان العرب ، مادة (العين المهملة) : ٦٦١/٢ .

(٢٣) ينظر : تحليل الخطاب الشعري (ستراتيجية التناسل) ، د.محمد مفتاح

/ ١٧٩ .

\* هناك ثلاثة أنواع من الفواصل القرآنية : الأولى : الفواصل المتماثلة : وهي التي

تماثلت حروف رويها ، والثانية : الفواصل المتقاربة : وهي التي تقاربت حروف

رويها كتقارب الميم من النون مثلا ، والثالثة : الفواصل المنفردة : وهي نادرة

وهي التي لم تتماثل حروف رويها ولم تقارب وهذه الفواصل المنفردة لا تتجاوز

في القرآن (٢٣ فاصلة) كما أحصى ذلك محمد الحسناوي في كتابه (الفاصلة

في القرآن) / ١٧٣ .

(٢٤) ينظر : الاعجاز الصوتي في سورة الكافرون ، د.رافع عبدالله ، د.عزة عدنان

/ ٣

(٢٥) ينظر : م.ن / ٤

(٢٦) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٨٥٣/٣٠ .

(٢٧) ينظر : نظم الدرر : ٣٠٩/٢٢ .

#### ثبت المصادر والمراجع

##### أ. الكتب

الاعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي ، مؤسسات عبدالكريم عبدالله ،

تونس و ١٩٨٠م .

فصورة المفصلة في العبادة بين الكافرين والرسول (صلى الله عليه وسلم) من خلال تناوب أصوات الفاصلة في الآيات التي تتحدث عن العبادة، فالتعاقب بينها واضح، وكأنه يمثل العرض الذي يقتضي تقسيم العبادة بين الله وبين الشركاء على نوبات زمنية، وهذه تقتضي التكرار لدى التطبيق<sup>(٢٥)</sup>.

فعدم المشاركة بوجه من الوجوه في زمن من الأزمان أدل على البراءة واقعد في دوام الاستهانة بالفعل الماضي في قوله (عبدتم) للدلالة على رسوخهم في عبادة الأصنام لأزمان قضت ، وفيه رمز إلى تنزه (ﷺ) من عبادة الأصنام من سالف الزمان وإلا قال : (ولا انا عابد ما كنا نعبد) فقد كان الكافرون يعدون سكوتهم (ﷺ) عنهم فيما قبل النبوة عبادة فجاءت هذه الآية بفاصلة منفردة تؤذن بإثارة اليقظة وشد الانتباه إلى فحوى الآية<sup>(٢٦)</sup>. كل ما تقدم من طاقات صوتية كان لها الأثر العميق في توضيح دلالة النص التي تدور حول ضرورة حسم الموقف (الآن) بين الرسول والكفار فيما يطلبون ، وقطع رجائهم من أن يقاد بهم النبي (ﷺ) في أن يعدل بربه أحداً في زمن من الأزمان<sup>(٢٧)</sup>.

#### الهوامش

\* عنونت هذه السورة في المصاحف التي بأيدينا قديما وحديثها (سورة الكافرون) باضافة (سورة) إلى (الكافرون) وبنيت (الواو) للرفع في (الكافرون) على حكاية لفظ القرآن الواقع في أولها : الكشاف ، الرمحشري : ٨٠٨/٤ ، وتفسير التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور : ٥٧٩/٣٠ .

(١) لباب النقول في أسباب النزول ، السيوطي / ٨١٥ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٥٨٠/٣٠ .

(٣) في سورة اللهب دراسة بلاغية ، د.احمد فتحي رمضان / ٢٠٠ .

(٤) الاعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي / ٢٥٧ .

(٥) ينظر : م.ن / ٢٣٠ .

(٦) أسماء سور القرآن الكريم ، دراسة لغوية تحليلية ، باسل خلف حمود / ٢٨٤ .

٢٨٥ .

(٧) تفسير التحرير والتنوير : ٥٨٠/٣٠ .

(٨) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي : ٣٠٢/٢٢ .

\* نقصد بالمتطابقة المتضادة وليس المتماثلة .

(٩) ينظر : نظم الدرر : ٣٠٥/٢٢ .

(١٠) ينظر : التعبير القرآني ، د.فاضل السامرائي / ٢٩ .

(١١) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٥٨٣/٣٠ . ٥٨٤ .

لباب النقول في اسباب النزول، السيوطي، في هامش تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

لسان العرب، ابن منظور، اعداد وتصنيف يوسف الخياط، دار لسان العرب، بيروت.

المفردات في غريب القران، الراغب الاصبهاني، اعده للنشر الدكتور محمد احمد خلف، الناشر مكتبة الأجلو المصرية.

المنتخب من القران الكريم، محمد متولي الشعراوي، دار العودة، بيروت، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، المغربي، ضمن شروح التخليص، مطبعة عيسى الباي الحلبي وشركاه، مصر.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، توزع مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط1، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

#### ب. البحوث المنشودة:

الاعجاز الصوتي في سورة الكافرون، د. رافع عبدالله، ود. عزة عدنان احمد عزت، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، مج18، ع1، ٢٠١١م  
في سورة الهمد دراسة بلاغية، د. أحمد فتحي رمضان، مجلة أدب الرفادين، جامعة الموصل، ١٩٩٨م.

#### ج. الرسائل الجامعية:

اسماء سور القران الكريم، دراسة لغوية تحليلية، باسل خلف حمود، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الموصل، بأشراف د. عماد عبد يحيى، ١٩٩٩م.

التوازي في القران الكريم، وداد مكايي حمود الشمري، اطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، بأشراف الاستاذ الدكتور شجاع مسلم، والاستاذ المساعد الدكتور حميد لازم مطلق، ٢٠٠١ م.

الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض، بغداد و دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨م.

تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن ابي الاصبع المعري، تقديم وتحقيق: حفي محمد شرف، يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

تحليل الخطاب الشعري ( استراتيجيات التناس) د. محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الناشر المركز الثقافي المغربي، المغرب، ط١، ١٩٨٥م.

التصوير الفني في القران، سيد قطب، دار الشروق و القاهرة، (د. ت).  
التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٩م.

تفسير التحرير والتنوير و الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، والدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان (د. ت).

التفسير الكبير، ابن تيمية، تحقيق وتعليق د. عبدالرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت و لبنان.

جان الجناس في علم البديع، الصفدي، طبع في مطبعة الجوائب، قسنطينية، ١٢٩٩م.

الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين علي الصغير، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات (٢٨٨).

الفاصلة في القران، محمد الحسنوي، دار الأصيل للطباعة والنشر، حلب و سوريا، ١٩٧٦م.

فتح البيان في مقاصد القرآن، ابو الطيب النجاري، عني بطبعه وقدم له وراجعته عبدالله بن ابراهيم الأنصاري، طبع نفقة دار إحياء التراث الإسلامي، قطر ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.